الجداريات الخزفية البابلية

أ.د.محمد العـــريبي
جامعة اليرموك /كلية الفنون الجميلة

ملخص البحث

تناول البحث دراسة الجوانب الفنية والتقنيـــة لجداريـــات السيراميك في مدينة بابل ، وقد تمت دراسة جميع الاعمال الجدرية في شارع الموكب وهو الشارع الرئيسي المـــهم في المدينـــة ، وكذلـــك جداريات الخزف في باب عشتار ، وجدارية قاعة العرش للملك نبـــو خذ نصر ، فقد تم وصف وتحليل جميع المواضيع المستخدمة في تحقيـــق مواضيع هذه الجدريات من اشكال هندسية وحيوانية ونباتية وطـــرق تنفيذها على سطوح هذه الجداريات وكيفية استخدام تقنيات مختلفـــة لغرض تنفيذها ، مثل استخدام القوالب وتوزيع العمل الفـــني علـــى شكل اجزاء تتناسب مع حجم الطابوق المستخدم في البناء ، وتنـــاول البحث ايضا دراسة الطلاءات الزجاجية الملونة الـــتي تم بواســـطتها اكساء قطع الخزف المكونة للموضوع .

تبين من خلال البحث امتلاك القدرة العالية للخزاف البابلي على تحقيق اروع واحسن النتائج فيما تركة لنا مـــن ارث حضـــاري عظيم يزين ما تبقى من جدران مدينة بابل الاثرية ومعظـــم متـــاحف العالم .

المقدمة

الخزف هو نتاج فني انتجة الانسان منذ قديم الزمان ، وقـــد استخدمة لاغراض مختلفة وكثيرة ساعدته على سد حاجاته اليوميـــة وتسهيل امورة الحياتية . فقد استخدم الانسان الطين كمادة اوليـــة في صناعة الخزف لكونة متوفرا ومطاوعا للعمل ، فقد صنع منه اشـــكالاً مختلفة مثل الاواني والجرار والاشكال الاخرى ثم اهتدى أن يشـــوى هذه المنتجات الطينية بعد جفافها لكي يكسبها صلابة ومتانة اكثر من السابق .

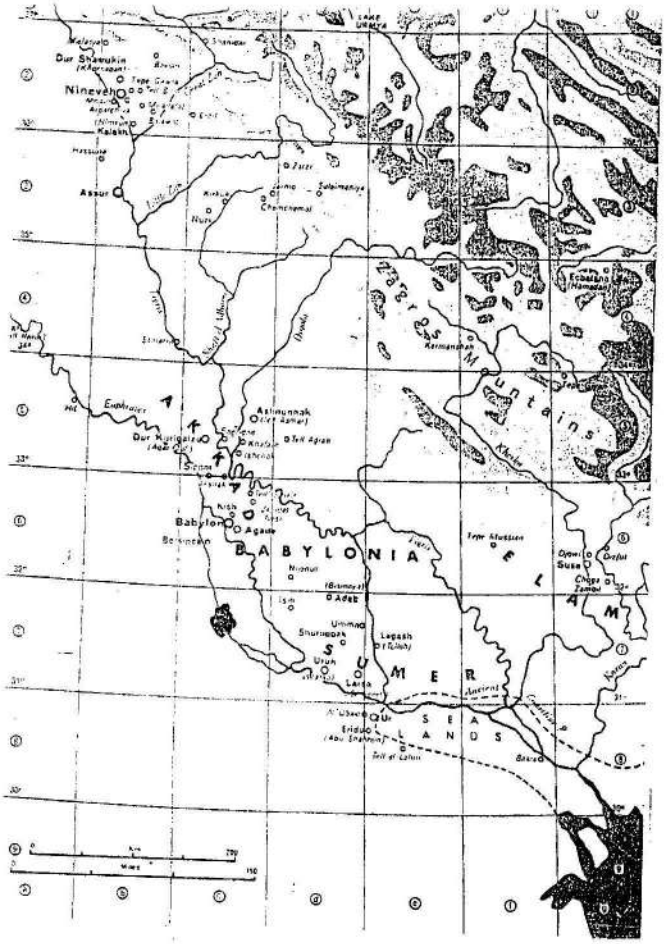

(شكل رقم ١)

وفي مرحلة لاحقه بدا بطلاء هذه الاشكال بالطلاء الزجـلجي لكي يكسب هذه القطع الخزفية سطحا جميلا خال مـــن المســـامات فتكون اكثر نفعا لخزن الاطعمة والسوائل والاستخدامات الاخرى .

وبمرور الزمن ، تطور الخزف فصار مطليا بالزجاج وملـــون ومزين بمختلف الزخارف وبمختلف التقنيات واتسع استعمالة فدخـــل كمادة انشائية في العمارة . وما يهمنا الان هو دراسة نوع مهم مـــن انواع فنون الخزف ، وهو الخزف الجداري المســـتخدم في العمـــارة البابلية . التي ما زالت اجزاء منها لحد الان . ومن اهمها ما موجود في متحف برلين لشارع الموكب وباب عشتار . ولقد مرت على بـــلاد بابل فترتان مهمتان من الازدهار البابلي الا انهما كانتا قصيرتي الامـــد خلال الالفي سنة من تاريخ بابل ، أن هاتين الفترتين لم تجيئا صدفة بل أن احدهما حدثت في مطلع العصر البابلي بينما حدثت الفترة المزدهرة الثانية عند نهاية ذالك العصر .

أن اثنين من الشخصيات الحاكمة قد تمـــيزت بهمـــا تلـــك الفترتان اولهما ســـرجون ملـــك اكـــد (٦٠٤ –٥٦٢ ق . م .) . وثانيهما ابو خذ نصر الثاني (٦٠٤ – ٥٦٢ ق . م .) .

وقد ظهرت هذه الجداريات على جدران بـــاب عشـــتار ، وشارع الموكب ، وجدار قاعة العرش . في مدينة بـــابل الواقعـــة في وسط العراق على نهر الفرات ، انظر شكل رقم (١) . منها ما نفـــذ بطريقة النحت البارز والاخرى نفذت بطريقة الرسم علـــى الجـــدار بالوان الخزف . وسوف نأتي على دراستها بالتفصيل لاحقاً .

وقد شاع استخدام وانتاج الخزف بعد ظـــهور اســـتخدام الافران ، (كان هناك الفرن الخاص بالصائغ وفرن الفخار ، وفرن يخبز فيه الخبز ، انها جميعاً عبارة عن نتائج " ثورة " حاسمة ابتدات من فـترة استخدام النار لتحضير الطعام وحتى فترة استخدامها للاغراض الفنية والصناعية) . لقد وجد الخزف في اماكن متعددة من بقاع العالم القديم وكان هو احد الشواهد الحقيقة والمهمة للتعرف على مدى التقـــدم الحضاري لشعوب العالم ، فلقد كتب الانسان القديم تاريخة لاول مـرة على صفائح من الطين ، وهو المادة الرئيسية في صناعة الخزفية انتجت خلال حضاراته المتعاقبة على مر العصور ومنها :-

١-خزف الاستعمال اليومي :هذا النوع من الخزف يمثـــل اشـــكالاً معينة مثل الجرار والصحون والاواني باختلاف انواعها واشكالها وقـد ابدع الفنان الخزاف في انتاجها وتزينها بالزخارف والالوان الجميلـة ، وقد اختلفت وتنوعت باختلاف الحقب الزمنية المختلفة .

٢- المنحوتات الخزفية :

اشتملت الاعمال الخزفية على اعمال نحتية لانواع مختلفـــة لاشكال الالهة المتعددة وكذلك اشكال الحيوانات المنحوتة والمجوفة من الفخار مثل الاسود واللبوات وغيرها وكانت عادة توضع في المعـابد وفي مداخل المدن (لوحة الاسد بالنحت المدور) بالنظر شكل رقم (٢)

٣-الخزف الجداري :

يتميز هذا النوع من الخزف كونه يمثل جزأ مهما من عنـاصر العمارة قديما وحديثا ، حيث تم تصنيع القطع الخزفية على اشـــكال بلاطات او طابوق باحجام مختلفة تتناســب مـــع شـــكل الجـــدار ، وتستخدم ضمن البناء او لتغليف الجدران ، في معظم المباني المهمة مثل القصور الملكية والمعابد وهذا النوع من الانتاج الخزفي هو في الحقيقـة من اكثر انتج الخزف الذي يمثل الجانب الفني ، وقد استخدمت قديمـا وحديثا تقنيات متعددة في انتاجة وكما يلي :

(أ) الرسم بالالوان الخزفية على سطح الجدار ، مثل جداريـــة قاعة العرش في مدينة بابل (لوحة رقم ٣) ، وسوف نتطـرق اليها للاحقا بالتفصيل .

(ب)جداريات الموزاييك المثبت على الجدار ، فقـــد اســـتخدم العراقيون القدماء في فترة الحضارة السومرية وفي مدينـــة اور هذا النوع من الجداريات ، حيث كان الفنان يصنـــع اشكالا مخروطية تشبة المسامير من الفخار وتكون رؤســـها العريضة ملونة بالوان الخزف الثابتة ، ثم تثبـــت داخـــل الجدار موزعة بالمائها حسبما يتطلب الشكل .

(ج) جداريات النحت البارز ، تنفذ هذه الجداريات بمواضيـــع مختلفة على الجدران بشكل بارز عن سطح الجدار وكـلنت تمثل اشكالا حيوانية مختلفة مثل الاسود والثيران وغيرهـا ، استخدمت فيها طريقة القولبة (وهي طريقـــة اســـتخدام القالب لعمل اشكالا مكررة) نفذت هـــذه الاشـــكال في جداريات شارع الموكب وباب عشتار في بابل

الجداريات الخزفية في شارع الموكب :

تتالف هذه الجداريات الموجودة في مدينة بابل على جـــدران شارع الموكب من اشكال حيوانية متكررة تمثـــل الاســـود نفـــذت بواسطة القوالب بارزة عن سطح الجدار الاصلي .

شارع الموكب هو اهم شارع في مدينة بابل وهـــو شـــارع الاحتفالات الكبير حيث يبلغ عرضه (١٠ متر) وهو مبلط بـالحجر ، الذي بلطه الملك نبو خذ نصر بالشادو (بلاط حجري من الجبـــال) وبلاط التور مينابانذا (وهي احجار عليها عروق حمراء وبيضاء) .

اما جدران هذا الشارع فكانت مزينة بنقش جداري يتكـون من منحوتات بارزة لاشكال اسود ذات طـــلاء زجـــاجي ملـــون ، وكانت وضعية هذه الاسود الملونة تواجة الناس القادمين من الشـمال متجهين نحو بوابة عشتار . والاسود الظاهرة في النقش هـــي اســـود بفروة بيضاء ولبدة صفراء واسود اخرى بفروة صفراء ولبدة خضراء اما الخلفية فهي زرقاء فاتحة او غامقة . وهيئة الاسد بغض النظر عـــن اتجاة السير نحو اليسار او اليمين هي نفســـها دائمـــا أي أن الفنـــان الخزاف قد صنع اثنين من القوالب لشكل الاسد احدهما بتجاة اليمين والاخر باتجاة اليسار واستنسخ بواسطتها شكلين من الاسود . وكـلن طول كل اسد (٢ مترا) تقريبا وكان عدد الاسود على كل جدار من جدران الشارع الذي يبلغ طولة (١٨٠ م .) ما يقـــارب ال (٦٠) اسدا وهذا يعني أن الموجود من الاسود هو (١٢٠) اسدا ، يتكـــون كل اسد من (١١) صفا من الطابوق سمك كل طابوقة = (٨ ســـم) بطول يتراوح بين (٣٤ إلى ٣٣ سم) وقد بسط الفنان الخزاف تحتـــه لشكل الاسد ليشمل (٤٦) طابوقة وكل طابوقة وكل طابوقة تحتـوي على جزء من شكل الاسد الكلي يجري تجميعها بعد ذلك اثناء البنـاء لكي يعاد تكوين الشكل الكامل للاسد وكما موضح في الشـــكل رقم (٤) .

يتصف النحت البارز لهـــذه الاســـود بالدقـــة والرشـــاقة والانسيابية علماً بانة قد نفذ على الجزء البارز الضيق من الطابوقـــة

الذي يعتبر هو سمك الطابوقه الذي تكون قياساتة الظاهرة للعين هي (٨ سم × ٣٣ سم) تقريبا ، وهذا يمثل نفس قياسات طابوق البناء الاعتيادي ومن المؤكد أن الفنان استخدم طريقة القولبة في انتاج هذا الكم الكبير من الانتاج في تزيين الجدران وكان قد نحتها مرتين مرة باتجاه اليمين ومرة باتجاه اليسار مما ادى أن تكون الاسود دائما بتجله المشاهد .

من خلال اختبار الطينة المستخدمة في تصنيع الطابوق تبين أن هذه المنحوتات تم طلاءها بطلاء زجاجي لماع واطئ الحرارة لا يتجاوز (١٠٥٠) درجة مئوية وملون بالوان متعددة منها الازرق للخلفيات والاصفر مائل إلى البرتقالي والاخضر والابيض ولون داكن مائل إلى الاسود بالاضافة إلى الاسود كانت هنالك رسوم زخارف مزججة بالوان مختلفة تشكل افريزين فوق وتحت اشكال الاسود ،وهي مكونة من اشكال هندسية وازهار دائرية تتكون من (١٦) وريقة بيضاء تتوسطها دائرة صفراء تحيط بها خلفية زرقاء داكنة يمكن ملاحظة ذلك في الشكل رقم (٥) .

الجداريات الخزفية في باب عشتار

كما تم جداريات النحت البارز في شارع الموكب تكرر هذا النوع من النحت الخزفي الجداري على جدران باب عشتار ، ولكن لاشكال حيوانية مختلفة ، مثل الثور وشكل التنين تتوزع بشكل منسق ومنظم على جدران بوابة عشتار .

كانت هذه الاشكل الحيوانية موزعة على جدران بشكل منتظم ومدروس بما يتناسب والشكل المعماري للبوابة ، وكانت ايضا منحوتة مرتين مرة باتجاه اليمين ومرة واخرى باتجاه اليسار بحيث كانت تظهر كلها متجهة إلى المركز ، وبالاضافة إلى هذه الاشكال الحيوانية الجميلة كانت هناك زخارف هندسية ونباتية مثل اشكال زهور دائرية واشكال مربعات ومستطيلات ملونه تحيط هذه الزخارف بالاشكال النحتية الرئيسية على شكل افاريز على المحيط الخارجي للبوابة .

اشكال الحيوانات المنحوتة

(١) شكل التنين ، نحت هذا الحيوان بشكل اسطوري هجين تغطي جسمة الحراشف ويحمل الراس قرني افعي وتنتهي الساقان الخلفيتان بمخالب محرشفة لطير من الطيور الكواسر ويبلغ ارتفاع شكل التنين (١٣٠ سم) وطولة حوالي (٢ متر) انظر شكل رقم (٦) ويتكرر شكل هذا التنين باتجاهين مختلفين مرة إلى اليسار ومرة إلى اليمين وقد نفذ على مساحة (٤٠) طابوقة بنفس قياسات الطابوق السابق مما يدل على خبرة واسعة واتقان كبير في تقنية النحت بواسطة القوالب .

(٢) شكل الثور ، على نفس البوابة توجد اشكال متكررة لثور مزجج ومنحوت بشكل بارز ومتكرر بواسطة القالب وهو منحوت ايضا باتجاهين يميناً ويساراً ، يبلغ ارتفاعه حوالي (١٣٠ سم) مرة ملون بالابيض ومرة ملون بالاصفر انظر شكل رقم (٧) .

وزعت هذه الاشكال النحتية الجميلة على واجهة جدران بوابة عشتار بشكل متناسق وبتصميم معماري رائع ، يبدا من الاسفل بافريز يتكون من منحوتات متكررة لشكل الثور ثم يلية إلى الاعلى اشكال اخرى لحيوان التنين متجهة جميعها إلى المركز أي إلى مدخل البوابة ، اما الطلاء الملون كان موزعاً بالتناوب بين الابيض والاصفر علماً بانها زججت ولونت بنفس نوع الزجاج (اللماع الواطئ الحرارة) .

(٣) الاشكال الهندسية والنباتية ، على نفس الجدران في البوابة يحيط باشكال الحيوانات النحوتة الجميلة والمتقنة الصنع التي اظهر الفنان البابلي براعة فائقة ودراية كبيرة في الجانب الحرفي والفني اضافة إلى التصميم المعماري الرائع ، افاريز هندسية مكونة من اشكال هندسية مربعة ومستطيلة مستفيداً من اسكال الطابوق نفسه المستخدم في البناء وكذلك يوجد في الافاريز الاسفل مجموعة متناسقة من الورود الدائرية الشكل وريقاتها بيضاء ومركزها دائرة صفراء يحدها من الاعلى والاسفل خطين ملونة باللون الاصفر تتوسطهما مربعات بيضاء وزرقاء ومن خلال ملاحظة مستوى ونوعية الانتاج الفني يظهر لنا أن الفنان الخزاف البابلي كان بارعاً جداً وذو خبرة عالية جداً ودراية تامة بكل تفاصيل العمل الخزفي وما يحتاجة من جوانب علمية وعملية .

جدارية قاعة العرش

تقع هذه الجدارية في قاعة عرش الملك البابلي (نبو خذ نصر) وقد نفذت هذه الجدارية بطريقة تختلف قليلاً عن الجداريات التي استعرضناها سابقاً على الجدران شارع الموكب وباب عشتار ، حيث نفذت هذه الجدارية على سطح خزفي مكون من طابوق مزجج وملون ، ويتالف موضوعها من اشكال نباتية وهندسية وحيوانية ، الاشكال الحيوانية عبارة عن اشكال لثلاث اسود والاشكال النباتية تتالف من النخيل المحوره واشكال الزهور المختلفة فالاشكال الهندسية عبارة عن مربعات ومستطيلات متعاقبة على شكل اطار يحيط بالاشكال المرسومة .

لقد اختار الفنان البابلي اللون الازرق الغامق خلفية لهذه الجدارية الجميلة ولون جذوع النخيل الاربعة المحوره باللون الاصفر مقسمة هذه الجذوع إلى ثلاثة اقسام بينها اربعة مفاصل ملونة بالازرق (الشذري) وراس كل نخلة مكون من ثلاث تفريعات نباتية بمثابة اجزاء من الورود وفي وسط شكل لوزي اصفر محدد باللون الازرق

والاسود وفي هذه الاشجار ثلث ورده دائرية ،استخدمت في اماكن اخرى من الجدارية ، يحيط بهذه الاشجار النخيلية من اربعة جهات افاريز مكونة من اشكال زهور مرتبة باتجاهات مختلفة ومعها اشرطة من اشكال هندسية ، انظر شكل رقم (٣) .

وفي الجزء الاسفل من الجدارية اشكال ثلاثة اسود متشابهة تسير باتجاه واحد ملونة باللون الاصفر الابيض رافعة ذيولها إلى الاعلى ، تحتها ايضاً افريز مزحرف من اشكال نباتية تمثل الزهور الدائرية بيضاء اللون بوسطها دائرة صفراء ، تتميز هذه الجدارية بدقة التنفيذ والمهارة العالية والسيطرة الكبيرة الالوان على السطح بشكل متقن وجميل .

الاستنتاجات :

(١) أن الفنان الخزاف البابلي كان يمتلك تقنية متطورة ومتقدمة في تحضير طينة الخزف حيث انه استطاع أن يستعمل نفس نوعية الطين مرة للبلاط (الطوب) العادي ومرة اخرى للطوب المزجج ، وبكميات كبيرة جداً .

(٢) امتلاك الخبرة الواسعة ةالناجحة في استخدام القولبة لانتاج نسخ متعددة للاشكال النحتية بشكل دقيق ومضبوط في جميع الاشكال التي تم تنفيذها في الجداريات الخزفية المختلفة .

(٣) معرفة الخزاف البابلي التامة بطبيعة المواد المستخدمة في العمل الخزفي مثل الاطيان والجبس وبعض المواد العضوية واكاسيد المعادن .

(٤) السيطرة التامة على طرق فخر او حرق الاشكال الخزفية والسيطرة الدقيقة على التحكم بدرجات الحرارة اثناء الحرق .

(٥) المعرفة التامة بهندسة وبناء الافران الخزفية وباحجام كبيرة .

(٦) معرفة الخصائص الفيزياوية والكيمياوية للطين العراقي بحيث استطاع الخزاف العراقي السيطرة على النوعية العالية للانتاج

(٧) تفوق البابليون في صناعة الزجاج وكيفية تحضيره وصنع الطلاءات المختلفة للسطوح الخزفية .

(٨) المعرفة الكاملة لتركيبات الالوان المختلفة لانواع الزجاج حيث تم تطبيق زجاج ابيض معتم ولماع للسطوح الخزفية .

(٩) السيطرة على درجات حرارة صهر ونضج الطلاء الزجاجي .

(١٠)اتقان تكنولوجيا وطرق التزجيج واستخدام الوان مختلفة على نفس المساحة بوقت واحد .

(١١)التناغم والتكامل بين فن الخزف وفن العمارة بحيث يكملان بعضهما بما يعطي نتاج رائع وجميل .

المصادر والمراجع :

*جون اوتس ، ترجمة : الجلبي سمير عبد الرحيم ، بابل تاريخ مصور ، وزارة الثقافة والاعلام ، دائرة الاثارة والتراث ، بغداد ، ١٩٩٠ .

*ليو اوبنهايم ، ترجمة : سعدي فيضي عبد الرزاق ، بلاد ما بين النهرين ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦ .

*روبرت كولديفاي ، ترجمة : د. منصور علي يحيى ، بوابة عشتار ، وزارة الثقافة والاعلام المؤسسة العامة للاثار والتراث ، بغداد ، ١٩٨٥ .

*روبرت كولدفاي ، فردريش فيتسل ، ترجمة : د. منصور علي يحيى ، القلاع الملكية في بابل ، المؤسسة للاثار والتراث ، ١٩٨٠ .

*سيتون لويد ، ترجمة : الاحمد سامي سعيد ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨٠ .

*سوسة احمد ، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ، وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .

*اندري بارو ، ترجمة : د. سلمان عيسى و التكريتي سليم طه ، سومر فنونها وحضارتها ، طباعة شركة تيمز و هدسن ١٩٧٧ .

(شكل رقم ٢)

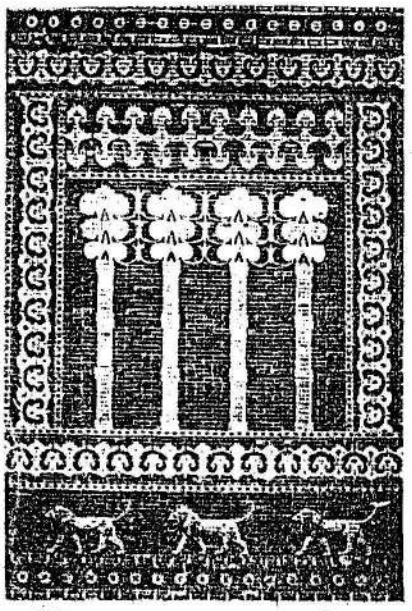

الريز من الاجر المزجج على واجهة قاعة العرش في قصر نبوخذنصر (شكل رقم ٣) . موجود حالياً في متحف برلين. لون الخلفية أزرق غامق والأعمدة والأسود تظهر بالألوان الأصفر والأبيض والأزرق والأحمر وأصبحت الآن تميل الى اللون الأخضر

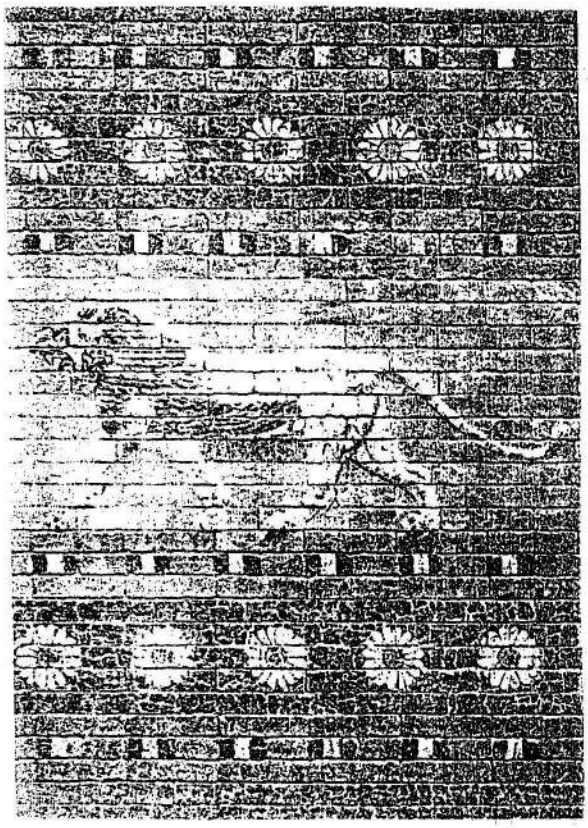

اسد شارع الموكب
(شكل رقم ٤)

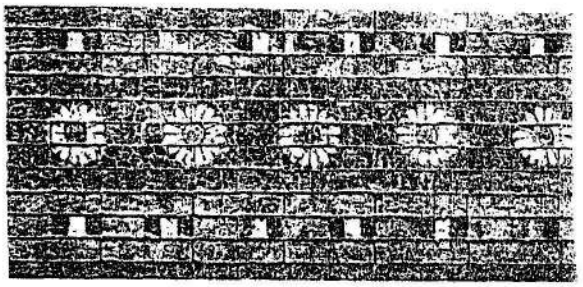

(شكل رقم ٥)

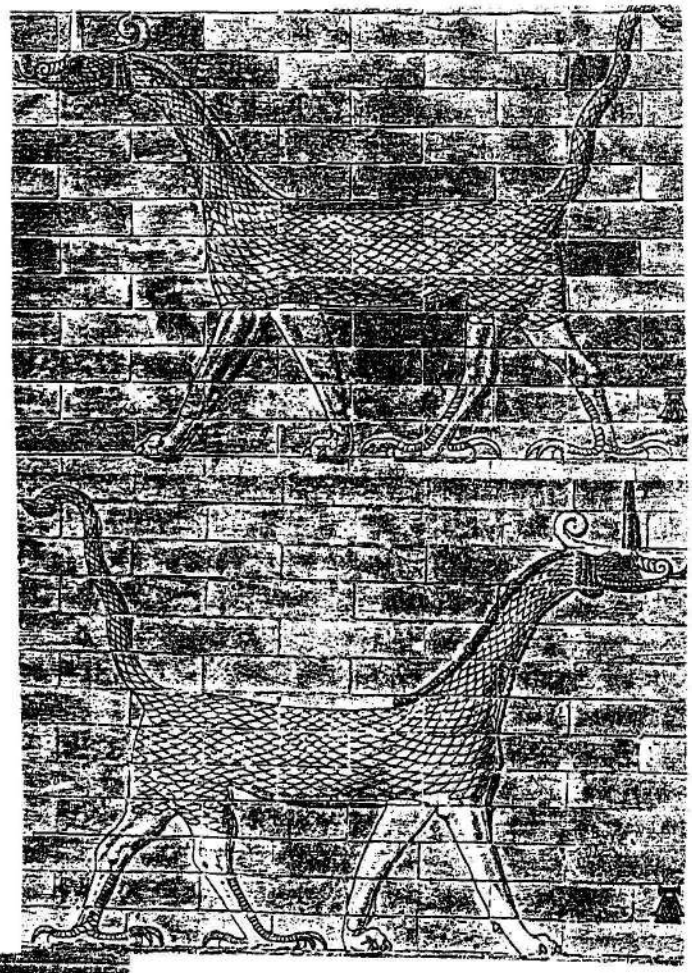

(شكل رقم ٦)

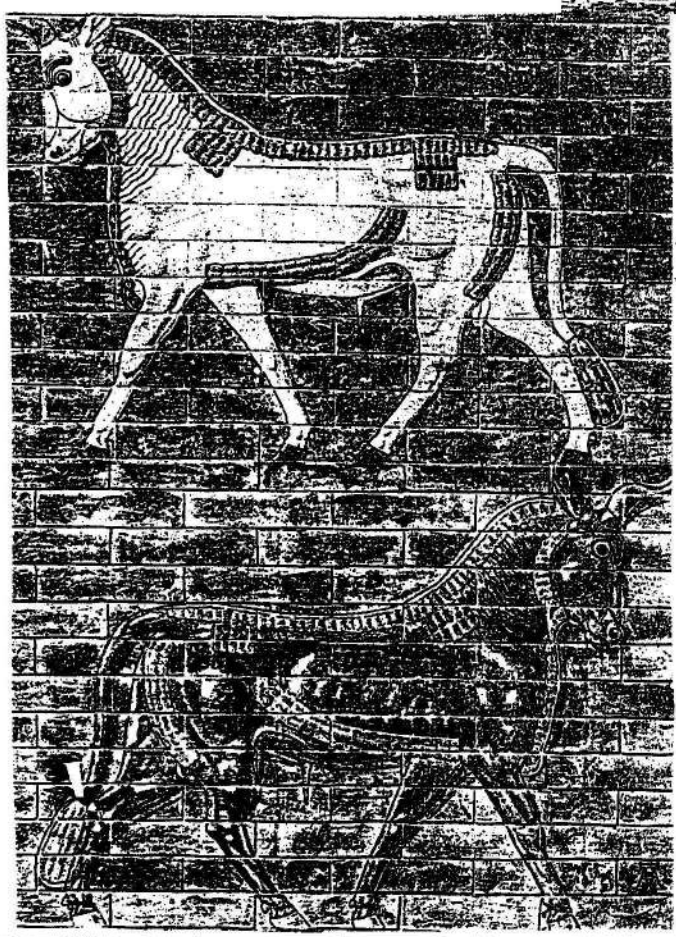

(شكل رقم ٧)